بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 04 أغسطس 2017

في جينيالوجيا الاغتراب عند ماركس

سلام زويدي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

ملخص

أيّ ضرب من القراءة نقرأ به الاغتراب كما كان قد أقبل عليه **ماركس** منذ مخطوطاته الأولى؟ وأيّ استقبال نستقبل به الاغتراب داخل راهننا الإمبراطوري؟ كنّا قد باشرنا **ماركس** قراءة وكتابة وأعدنا قراءته باستمرار، والغرابة في قراءتنا أنَّها كشفت لنا أنَّه لا يُمكن أن نستحمَّ في النص نفسه مرَّتين، فكلُّ قراءة للنص ذاته تجعلنا نكتشف معاني مُضمرة ما تزال جاثمة تنتظرُ، شأنها شأن الشبح الذي أرعب أوروبا وطرد النوم من جفون رجال الدين.

مقدّمة

أيّ ضرب من القراءة نقرأ به الاغتراب كما كان قد أقبل عليه **ماركس** منذ مخطوطاته الأولى؟ وأيّ استقبال نستقبل به الاغتراب داخل راهننا الإمبراطوري؟ كنّا قد باشرنا **ماركس** قراءة وكتابة وأعدنا قراءته باستمرار، والغرابة في قراءتنا أنّها كشفت لنا أنّه لا يُمكن أن نستحمَّ في النص نفسه مرَّتين، فكلُّ قراءة للنص ذاته تجعلنا نكتشف معاني مُضمرة ما تزال جاثمة تنتظرُ، شأنها شأن الشبح الذي أرعب أوروبا وطرد النوم من جفون رجال الدين.

فمعاودة قراءة نصوص **ماركس**، وخاصَّة تلك التي خدمت الاغتراب من جهة الولادة والنشأة والتطور من «**نقد فلسفة الحقوق**»، إلى «**حول المسألة اليهوديّة**»، مروراً «**بمخطوطات 1844 الاقتصاديَّة الفلسفيَّة**»، توقفاً عند «**الإيديولوجيا الألمانيَّة**»، وصولاً إلى «**نقد الاقتصاد السياسي**» في رأس المال، هي في عمقها بيان إلى حدّ المرض كيف استحال الاغتراب في عيادة **ماركس**، ونحن نشدّد على مفهوم العيادة لأنَّ **ماركس** وللمرَّة الأولى يستقبل وينشّط الاغتراب بطريقة مغايرة عن سابقيه.

سنبيّن في هذا المقال منشأ تفكير **ماركس** في الاغتراب على أسس ماديَّة تاريخيَّة ليخالف ويخرج عن التقاليد الفلسفيَّة من أفلاطون إلى هيغل مروراً بفيورباخ والهيغليين الشبَّان،[1] وهذا ما يجعل منه رافضياً، لأنَّه رفض الطريقة التي حلّل بها الاغتراب. وهو ما يسمح لنا بالقول إنَّ النقد الماركسي للاغتراب هو بيان في فلسفة الرفض، أمَّا الدعوة إلى إلغائه وتخطّيه إيجابياً فهو بيان في فلسفة الفعل في التاريخ، بهذا المعنى فقط يكون الاغتراب في عيادة **ماركس**.

1. الاغتراب تأثيلاً وتأريخاً

لا ريب في كون الاغتراب «كياناً مريضاً» وفق تشخيص **بول ريكور**، ومرضه إنّما يعود إلى تعدُّد دلالاته ومعانيه، فهو كيان حمَّال ومثقل ومتشعّب، يتداخل فيه الديني بالسياسي والاقتصادي بالاجتماعي، إلى ذلك الحدّ الذي استحال فيه الاغتراب نفسه يعني كلَّ شيء. فمفهوم الاغتراب إذاً يحيلُ إلى شتَّى الأبعاد الإنسانيَّة، وبالتالي فهو متعدّد المصادر، فهو يعني طبّيًّاً عدم المقدرة على التعرُّف على كنه الذات وعالمها، وبالتالي اغتراب الذات أمام ذاتها، أمَّا في معناه القانوني فيتنزَّل في سياق النزع المعذّب للملكيَّة بغير موجب حق، أمَّا في سياقه الاقتصادي فيتنزَّل في سياق فصل قوَّة الإنتاج عن وسائل الإنتاج، أمَّا دينياً فيُفهم في سياق

1- ما أتاه **ماركس** من وجهة نظر **التوسير** هو قطيعة ابستيمولوجيَّة تؤسس لنظريَّة في التاريخ (الماديَّة الديالكتيكيَّة)، وفلسفة جديدة (الماديَّة الديالكتيكيَّة). انظر في هذا السياق:

- Louis Althusser, *pour Marx*, Edition la découverte, paris, 1968, p25.

انحلال وتفسُّخ علاقة الإنسان بربّه، وبالتالي فهو يُفهم في سياق فكر الخطيئة داخل الأديان المقترنة بفكرة الخلاص الأخرويَّة.

يحيل الاغتراب **Aliénation**[2]* على "المغرّب المنقطع، وللكلمة هنا معنى السلبي الذي لا يعمل، والذي يظل انكساراً"[3]، فلمَّا كان الاستلاب «الفعل الذي بموجبه يتخلّى الإنسان بالهبة أو البيع عن متاع يملكه»[4] فإنَّ الاغتراب يفهم في سياق التنازل الشامل عن الوجود في جمعه، وبالتالي فهو «ضياع الذات في الآخر والتنازل عن الوجود لا عن الممتلك كما الشأن بالنسبة إلى الاستلاب».[5]

نزَّل **أفلاطون** الاغتراب تنزيلاً فلسفياً ليكون تعبيراً عن ضياع الذات في عالم الظنّ والأغلال، فأمثولة الكهف هي التعبير الأسمى عن حالة الاغتراب التي يعيشها العامَّة داخل العالم، وقد فقدوا إمكانيات التعرُّف عن ذواتهم والعالم، ولنا في الجدليَّة الأفلاطونيَّة طرح لإمكانيات وسبل تجاوز الاغتراب مثالياً. وتطوَّر هذا المفهوم داخل تاريخ الأفكار الفلسفيَّة ليتوالد ويتكثَّر في جميع الحقول المعرفيَّة، فللفلاسفة مدلولهم للاغتراب وممكنات تخطّيه، وللكهنة ورجال الدّين تصوُّراتهم للاغتراب منشأ وتكوُّناً وتجاوزاً، ولرجال القانون ما يشرّعون أو ما يبطلون به الاغتراب قانونياً.

وممَّا لا ريب فيه هو أنَّ للاغتراب حضوراً وفاعليَّة منذ منبت الفلسفة وصرختها الأولى، فبدايات التفلسف كانت دهشة واندهاشاً ووعياً بالجهل وتحسُّساً لغربة الكائن في العالم وعدم مقدرته على الإحاطة بسؤال الوجود والموجود. وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إنَّ الوعي بالاغتراب كان وما يزال محرّكاً ودافعاً ومولّداً لإعادة التأسيس لهذا العالم على نحو يكون فيه الكائن مستعيداً ذاته، نقول استعادة الذات لأنَّ الذات الإنسانيَّة كانت في بداياتها الأولى مصادَرة في معبد الفكر الأسطوري، ومن بعدها في معبد الفكر الدّيني، وهي الآن مصادَرة في معبد السلعة العالميَّة. للاغتراب منبته وترحاله عبر تاريخ الفلسفة، فهو يتنزَّل عند **أفلوطين والقدّيس**

2* الاغتراب يعني تحويل خصائص وقدرات الإنسان إلى شيء غريب عنه ومتسلط عليه، كما يعني تحوُّل بعض الظواهر إلى شيء يختلف عمَّا هي عليه، ويمكن أن يأخذ مفهوم الاغتراب معنى الاستلاب، حيث تقوم المؤسَّسات على انتزاع الوعي من الأفراد والجماعات واحتوائهم داخل منظومة استبداديَّة وتعسفيَّة، بمعنى تجريد الذات من صفتها الحقيقيَّة، بما هي ذات واعية بالعالم وبالأشياء، وقد شهد هذا المفهوم حضوراً في الفلسفة الهيغليَّة، حيث بيَّن **هيغل** Hegel أنَّ العالم الموضوعي هو بمثابة «الروح المستلبة»، أمَّا **فيورباخ** Feuerbach فهو يؤكد على أنَّ استلاب الإنسانيَّة لماهيتها وفقدانها لوعيها بذاتها يعود أساساً إلى الدين، وفهمه **ماركس** Marx ضمن الإطار الاقتصادي (اغتراب العمَّال)، وقد أكَّد في نصّه **مخطوطات 1844 الاقتصاديَّة والفلسفيَّة** أنَّ مفهوم الاغتراب يرتبط أساساً بعلاقات الإنتاج القائمة على الاستغلال والتصادم بين الطبقة المهيمنة والبروليتاريا؛ الأمر الذي أدَّى إلى أن تحول الإنسان إلى ملك لغيره أو أصبح عبداً للأشياء الماديَّة (الآلة)، ويذكر ماركس في نصّه هذا: «والعمل المغترب، حين يغترب بالإنسان عن الطبيعة وعن ذاته، عن وظائفه النشطة، عن نشاطه إنَّما يغترب بالنوع عن الإنسان» (**المخطوطات** ص 83)، لكنَّ **هابرماس** Habermas يرى أنَّ الاغتراب الاقتصادي لم يعد قادراً على أن يكون منطلق النضال السياسي، لذلك قام **هابرماس** بتوسيع نطاق هذا المفهوم ليشمل الاغتراب الثقافي. وإذا كان ماركس يلغي الاغتراب عن طريق إلغاء المجتمع الطبقي وسيطرة البشر على بعضهم بعضاً، فإنَّ **هوركهايمر** يؤكد أنَّ الحل الماركسي لم يعد يجدي نفعاً، وأنَّ تجاوز الاغتراب لا يتمُّ إلا عن طريق فعل النقد الذي يجب أن يتوجَّه مباشرة إلى المجتمع، بمعنى النّقد الاجتماعي. (لمزيد من الوضوح انظر: **معجم المصطلحات الهيغليَّة** لإمام عبد الفتاح إمام و**معجم الماركسيَّة النقدي** لجيرار بن سوسان وجورج لابيكا).

3- سوسان (جيرابن)، لابيكا (جورج)، **معجم الماركسيَّة النقدي**، ترجمة جماعيَّة، دار محمد علي للنشر، ط، 1، 2003، ص 101.

4- المرجع نفسه، ص 101.

5- المرجع نفسه، ص 101.

أوغسطين و**مارتن لوثر** و**كالفن** في سياقه الدّيني، أي في سياق علاقة الإنسان المتديّن بربّه، ومسعاه ليكون كائناً كاملاً محاكاة لهذا الكائن المفارق، أمَّا **أدام سميث** فقد كان السبَّاق في تنزيله لهذا المفهوم في إطار علاقات التبادل الاقتصاديَّة، ومنح للاغتراب مدلولاً سياسياً مع مفكري التنوير، **فروسو** يجبره أن يكون معبّراً عن طبيعة العقد، أمَّا **هيغلياً**[6] فيُفهم في إطار «الوعي المريض لفينومنولوجيا الروح»[7] المعبّر عن اغتراب الروح عبر التاريخ، ومع **فيورباخ** يكتسب الاغتراب مدلول اغتراب الجوهر الإنساني في المسيحيَّة.[8]

كيف لنا إذاً أن نستقبل مفهوم الاغتراب على ضوء الراهن ونصرّفه تصريفاً مادياً تاريخياً، ليكون معبّراً عن أشكال الاغترابات التي باتت شاملة لأدقّ خفقات الكائن؟ وكيف لنا أن نصرّفه تصريفاً **ماركسيَّاً**، ليكون في عيادة **ماركس** نفسه؟

نقول بجينيالوجيا[9]* الاغتراب لأنَّ **ماركس** في نقده لسابقيه وفي تأسيسه للاغتراب على أسس ومصارف جديدة كان قد واكب منشأه وترحُّله وتكوُّنه، حتى استحال إلى وضعيَّة إنسانيَّة كارثيَّة، فما تصريف الاغتراب داخل عيادة **ماركس** تصريفاً نقدياً وتأسيسياً إلا سعي منَّا إلى بيان وتأكيد الاقتران الوثيق بين الماديَّة التاريخيَّة والديالكتيكيَّة النقديَّتين، وتشخيص الاغتراب باعتباره حالة مرضيَّة وموطن أزمة في الآن نفسه، ففي نقد الاغتراب تشخيص لسماته المرضيَّة وتقديم مضادات حيويَّة ثوريَّة لاجتثاث الظروف التي أفرزته.

يسمحُ لنا ما قيل بأن نواكب منشأ تفكير **ماركس** في الاغتراب وترحُّله من الاغتراب الديني والسياسي إلى الاغتراب الاقتصادي، وهو ما يبيّن لنا بالقول إنَّ النقد الماركسي للاغتراب هو بيان في فلسفة الرفض.

2. في جينيالوجيا الاغتراب، من السماء إلى الأرض

مثَّل الطرح الماركسي لمسألة الاغتراب منقلباً ومنعرجاً حاسماً في تاريخ الأفكار الفلسفيَّة، فبموجبه نزّل الاغتراب تنزيلاً مادياً تاريخياً، ليكون نتاجاً لحركة الظروف الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، فتتبُّع منشأه ومولدهُ وتطوُّره عبر الأحقاب التاريخيَّة لا يكون بتبخيس العالم الفعلي وطلب السماء، مثلما ذهبت في ذلك

6- انظر قراءة **ماركس لفينومنولوجيا الروح** في **مخطوطات 1844 الاقتصادية الفلسفيَّة** ولفلسفة ولديالكتيك **هيغل** في مجمله، وخاصة في الفصل «**نقد ديالكتيك هيغل وفلسفته ككل**»، ص 132 وما بعدها، مصدر مذكور سابقاً.

7- المرجع نفسه، ص 101.

8- راجع في هذا السياق:

Feuerbach (Ludwing (L'essence de christianisme, présentation par J P Osier, Gallimard 1991.

9* لئن كان المنهج الجينيالوجي هو بحث في الأصل والفصل والنشأة والتكون عبر الأحقاب التاريخيَّة، فإنَّ المنهج التفكيكي هو سكن وتنقيب وحفر داخل جهاز الميتافيزيقا من أجل الزيادة في تصدعاتها، ومن ثمَّة الكشف عن ثنائياتها التي تشتغل بها كالمادة والصورة، الدال والمدلول، التحت والفوق، الداخل والخارج، فالتفكير في الميتافيزيقا بواسطة التفكيك هو مكابدة من أجل إثارة فعل التفكير في اللَّا مفكر فيه والمبعد والمسكوت عنه، بل والمحتقر لأنَّه مدلول وجسد وكتابة يفسد نقاوة الوعي المعبّر عن فوريَّة الحضور، هذا السكن التفكيكي مكن **دريدا** من القول بالتمركز حول الميتافيزيقا بواسطة العقل والصوت ومن ثمَّة الشروع في إبطال هذا الجهاز.

الأديان بفلسفاتها وكهنتها، بل فقط بمهاجمة روح الظروف الموضوعيَّة الكامنة في أعماق الإنسان الفعلي التاريخي والاجتماعي. فمرور **ماركس** منذ «**نقد فلسفة الحقوق الهيغليَّة**» من نقد السماء إلى نقد الأرض هو في عمقه انبجاس لأولى الخطوات الهادفة إلى إعادة بناء فلسفة ماديَّة تحدّدُ مهمَّة الفلسفة والفيلسوف، فالترحُّل من السماء إلى الأرض ومن التأمُّل إلى الفعل ومن النقد المنفصل والمنخلع عن موضوعاته إلى النقد المتصالب والممتزج مع الظروف التي أنتجته هو في جلالته انصراف في غير ذلك المصرف الذي دأب عليه الفلاسفة من **أفلاطون** إلى **هيغل**.

يمرُّ **ماركس** في **المسألة اليهوديَّة** من نقد السماء إلى نقد الأرض ومن نقد الدين إلى نقد الدولة الرأسماليَّة، فتحليله للظاهرة الدينيَّة مكَّنته من الوقوف على انشطار الإنسان وتمزّقه ذاتياً، وبالتالي فمعرفة مولد الاغتراب لا يكون بإرجاعه إلى قوى فوق بشريَّة ولا بنقد الدين، بل فقط برسم أساسه النظري والعملي. لذلك يرجع **ماركس** الاغتراب إلى جذوره الدنيويَّة، أي إلى الإله الدنيوي للرأسماليَّة العالميَّة، فديانة المال في معبد سلعتها العالميَّة هي التي أنتجت هذا الإنسان المنفصل والمنخلع عن ذاته والآخر والعالم، فالمال إذاً «هو جوهر الإنسان المنفصل عن الإنسان، وهذا الجوهر الغريب يسيطر على الإنسان والإنسان يعبده».[10]

عندما يصرّف **ماركس** الاغتراب تصريفاً مادياً تاريخياً فإنَّه في الوقت ذاته يعلن من خلاله أزمة الإيديولوجيات أولاً، ويكشف جذوره الدنيويَّة المتصالبه مع التشكيلات الاجتماعيَّة ثانياً، فالتحرُّر من الاغتراب الديني لا يكون بنفي الدين، وإنَّما بنفي اليهودي الواقعي الذي يجدُ كماله في «المتاجرة».[11]

لا يمكن تجاوز الاغتراب الدّيني وتخطّيه إيجابياً، كما كان قد طرح أولاً في «**نقد فلسفة الحقوق**»، وثانياً في «**المسألة اليهوديَّة**» إلا من خلال السكن داخله ومتابعة عمليَّة ولادته ونشأته وتكوُّنه عبر الأحقاب التاريخيَّة، وبالتالي الظروف التي أنتجته، فلا يمكن والحال تلك الكشف عن الجذور الدنيويَّة للاغتراب إلا من خلال المرور من نقد السماء إلى نقد الأرض، أي نقد الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهذا ما يبرّر انتقال **ماركس** من نقد الاغتراب الديني إلى نقد الاغتراب السياسي والاقتصادي. فالمسألة اليهوديَّة هي مسألة دينيَّة لكنَّ حلّها لا يكون إلا دنيوياً عبر مصرف اليهوديَّة العمليَّة المتقوّمة على المال، ذلك أنَّ «المال هو إله إسرائيل الغيور الذي لا ينبغي لأيّ إله أن يقف أمامه».[12]

إنَّ نقد الظاهرة الدينيَّة وبيان أساسها المادي هو فاتحة ومقدّمة حقيقيَّة لفعل التخطّي الإيجابي لما يعيق استرداد الذات المصادرة فيما وراء هذا العالم، فتحليل الوجود المغترب والإنسان المستلب يكون فقط ممكناً

10- ماركس (كارل)، **حول المسألة اليهوديَّة**، ترجمة حمزة برقاوي، 1989، الاهالي عن دار ديتز برلين، 1961، ص 56.

11- المصدر نفسه، ص 53.

12- المصدر نفسه، ص 36.

من خلال «نزع القناع عن الاستلاب الذاتي في أشكاله غير المقدَّسة».[13]لهذا فقط نبَّهنا **ماركس** منذ مقدّمته لـ«**نقد فلسفة الحقوق لهيغل**» إلى أنَّ «نقد الدين هو الشرط الممهّد لكلّ نقد»[14]، وبالتالي فهو السبيل للولوج إلى الواقع الحقيقي والإمكان الخلَّاق لطرد روح الظروف الموضوعيَّة التي أنتجت شتَّى أشكال الاغتراب والاستلاب، وبالتالي فنقد الاغتراب الديني هو مقدّمة «لتجاوز الدّين بصفته سعادة وهميَّة للشعوب»[15] نحو محو جديد تطالب فيه الشعوب بـ«سعادة فعليَّة».[16] ومثل هذا الأمر لا يكون ممكناً إلا من خلال تجاوز كلّ سعادة وهميَّة، ذلك أنَّ الأوهام تقدّم العزاء والصبر والسلوان للجماهير المستضعفة. فالاغتراب بتلويناته المختلفة يخنقهم، والدّين بكهنته وفلسفته وطقوسه يقدّم لهم العزاء والصبر والسلوان باسم سعادة وهميَّة أخرويَّة، فالمرور إذاً من الشكل المقدَّس للاغتراب والاستلاب إلى الأشكال غير المقدَّسة هو البداية الفعليَّة للتخطّي الإيجابي للاغتراب، على أساس مادي شعاره نقد الأرض بما فيها من تشكيلات اجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة، وهذا هو ما شخَّصه **ماركس** بكونه البداية الفعليَّة «لسن الرشد... لقطف الزهور الحيَّة»[17] المترجمة لدوران الإنسان الفعلي حول نفسه وشمسه الحقيقيَّة.

سيمكننا تتبّع جينيالوجيا الاغتراب نشأة وتكوُّناً وترحُّلاً عبر تفرُّعاته من رصد ترحُّل **ماركس** من نقد الاغتراب الديني إلى نقد الاغتراب السياسي والاقتصادي. فالنقد السياسي للاغتراب داخل المسألة اليهوديَّة كما كان **ماركس** قد فنَّد به **برونو باور** يفهم في سياق إنزال المسألة اليهوديَّة من الدين إلى الدنيا ومن يهودي يوم السبت إلى اليهودي الواقعي والدنيوي، ومعنى ذلك أنَّه «يجب ألَّا نبحث عن سّر اليهودي في دينه، بل نبحث عن سرّ الدين في اليهودي الواقعي، ما هو الأساس الدنيوي لليهوديَّة؟ الحاجة العمليَّة والمنفعة الشخصيَّة. ما هو دين اليهودي الواقعي؟ المتاجرة. وما هو إلهه الدنيوي؟ المال».[18]

إنَّ النقد السياسي للاغتراب هو بلا ريب انتقال من الدّين المحض إلى الدّين العملي، من السماء إلى الأرض، عبر ديالكتيكيَّة البناء التحتي والفوقي، ومن التناقض بين الدولة والدّين إلى التناقض بين الدولة والملكيَّة الخاصَّة، ومن البحث عن سرّ الدّين بنقد الدّين إلى البحث عن سرّ الدّين بنقد الظروف الاجتماعيَّة.

13- Marx (karl), Critique du droit politique Hégélienne, traduction et introduction d'Albert Baraquin, Éditions sociales, Paris1975, p 198.

14- Ibid, p201.

15- Ibid, 203.

16- Ibid, 205.

17- Ibid, p198.

18- حول المسألة اليهوديَّة، مصدر مذكور سابقاً، ص 29.

حينما ينزّل **ماركس** الاغتراب تنزيلاً مادياً تاريخياً نقدياً فإنَّه في الوقت ذاته يرفع **الهيغليَّة** ويقلبها[19] ويصحّحها ويواصلها، وفي الوقت نفسه يتطهَّر في جدول النار **الفيورباخي**، ليكون جاهزاً لخوض أشرس المعارك، وهو ما سيمكّنه من الانتقال إلى نقد الاغتراب الاقتصادي في «**مخطوطات 1844 الاقتصاديَّة الفلسفيَّة**» مروراً «**بالإيديولوجيا الألمانيَّة**» وصولاً إلى «**رأس المال**»، فوضعيَّة العامل في المجتمع الرأسمالي هي ما شخّصها **ماركس** باعتبارها اغتراباً وضياعاً؛ ذلك أنَّ العامل حينما يعمل لا يحقق ذاته بل يتموضع و«يفقد الواقع»[20]، وبالتالي فالعامل حينما يعمل فهو لا يؤكّد ذاته وإنَّما يسلبها ويقتلها، «فكلّما زاد الإنتاج أصبح هو أقل».[21]

لا ريب إذاً في أنَّ تفكير **ماركس** في الاغتراب إنَّما يمرُّ حتماً ووجوباً عبر معرفة كيفيَّة تشكُّل الاغتراب، وذلك بمعرفة فروعه المتصالبة حول جهاز الإنتاج الرأسمالي، فالملكيَّة الخاصة لوسائل الإنتاج ودولة الطبقة المهيمنة التي أتاحت وشرَّعت لانقسام المجتمعات إلى طبقات هما في حقيقة الأمر من أنتجا هذا الوجود المغرّب. ولهذا فقط أرجع **ماركس** الاغتراب إلى البناء التحتي بما فيه من علاقات وقوى إنتاجيَّة، فبداية تشكّل الاغتراب إذاً تحدّد في النزع المعذّب لملكيَّة الشغيل، وفي الاستحواذ اللَّا إنساني على الأرض، وإعادة تشكيل العالم تشكيلاً يخدم صنم رأس المال، فلم يبقَ العالم أرضاً مشتركة لما يقول **كانط**، بل رقعة شطرنج كبيرة ومعتقل كبير عافته الآلهة وأدبرت عنه. فانقسام المجتمع إلى طبقات وتحوُّل الدولة إلى دولة طبقيَّة حامية وحارسة لمصالح رأس المال هو الصرخة الأولى لميلاد الاغتراب. ولهذا فقد حلّل **ماركس** الاغتراب تحليلاً مادياً تاريخياً، فتاريخ التشكيلات الاجتماعيَّة، كما عرضه في «**الإيديولوجيا الألمانيَّة**»، يبيّن لنا منشأ الاغتراب في زمنيَّة الرّق أين وقع امتلاك العبيد وتسعيرهم، فأشكال الرّق والاسترقاق ليست ميزة العصور القديمة فحسب، فللعصور الحديثة أشكال استعبادها واسترقاقها الناعم، لهذا يكون للاغتراب ما يبرّر حضوره اليوم في إمبراطوريَّة رأس المال.

وعندما ينتقل **ماركس** من النقد الدّيني إلى النقد السياسي والاقتصادي فإنَّه في الوقت ذاته يواكب ترحُّل الاغتراب من الاغتراب الدّيني في الإمبراطوريَّة القديمة إلى الاغتراب الاقتصادي في إمبراطوريات

19- يؤكد **ألتوسير** في هذا الموضع أنَّ صيغة «القلب» الماركسي **للهيغليَّة** بـ«استخراج النواة العقلانيَّة داخل اللغة الصوفيَّة»، أي الديالكتيك هو صيغة «بلا معنى» n'a aucun sens، وبالتالي «فهو لا يدلّ على «قلب» **الهيغليَّة** بعامَّة، أي يعني قلب الفلسفة التأمّليَّة spéculatif كما هي. نحن نعلم أنَّ هذا العمل منذ الإيديولوجيا الألمانيَّة ليس له أيُّ معنى».

- يقول الفيلسوف الماركسي الفرنسي **لويس ألتوسير**: الطريقة المثلى لفهم **هيغل** وعلاقة **ماركس بهيغل** هي قبل كلّ شيء قراءة وفهم رأس المال». انظر في هذا السياق:

- Louis Althusser, *pour Marx,* Edition la découverte, paris, 1968, p87 ,88 ,89.

- Louis Althusser, Lénine et la philosophie, suivie de Marx et Lénine devon Hegel, Petite collection Maspero, Paris1992, p77.

20- ماركس (كارل)، **مخطوطات 1844الاقتصاديَّة الفلسفيَّة**، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة 1974. ص 26.

21- المصدر نفسه، ص 26.

رأس المال، أي من التشكيلات الاجتماعيَّة السابقة على الرأسماليَّة إلى الرأسماليَّة المانيفاكتوريَّة، لهذا حُدّد الاغتراب من خلال علاقة العمل بأسلوب الإنتاج وفعل الإنتاج، باعتباره «نشاطاً غريباً لا ينتمي إليه (...)، إنَّه النشاط كمعاناة والقوَّة كضعف والإنجاب كعقم».[22] يفهم الاغتراب داخل النشاط الاقتصادي في اغتراب العامل أمام أسلوب وفعل الإنتاج وبكلمة اغتراب العامل داخل الجهاز الإنتاجي، وهذا ما عبَّر عنه **ماركس** حينما كتب يقول: «إذا كان نتاج العمل هو الانسلاب فلا بدَّ أن يكون الإنتاج نفسه استلاباً نشطاً، انسلاب النشاط نشاط الانسلاب، ففي اغتراب موضوع العمل إنَّما يتلخَّص الاغتراب، الاستلاب في نشاط العمل».[23]

لئن بدأ **هيغل** جدليَّة السيّد والعبد بتقديم وصف للسيد من جهة مغامرته بحياته ليكون سيّداً على ذاته وعلى العالم، فإنَّ **ماركس** في إطار تحليله للاغتراب يبدأ بالعامل باعتباره محور العمليَّة الإنتاجيَّة، لأنَّ العامل ينحدر داخل مجتمع منقسم إلى طبقات، وفي عمليَّة إنتاجيَّة استبداديَّة إلى دون الإنسان ليصبح موضوعاً ومشيَّئاً، أي مجرَّد سلعة، وبالتالي فالعمل المغرّب يغرّب العامل عن منتوجه وعن عمليَّة الإنتاج نفسها وعن الطبيعة وطبيعته، وبالتالي تسلب وتغرّب وظيفته الناشطة والحيويَّة ويدمَّر تدميراً شاملاً، فهو «ينتج للأغنياء أشياء رائعة، لكنَّه ينتج للعمَّال الحرمان، إنَّه ينتج القصور وللعامل الأكواخ، ينتج الجمال، وللعامل التشيؤ».[24]

لئن ذهبت **حنه أرندت** في تشخيصها للوضع البشري في العالم الحديث إلى القول إنَّ هروب الإنسان من الأرض إلى الفضاء ومن الذات إلى العالم والأشياء هو في عمقه اغتراب كإشكال سياسي، فإنَّ ما كان قد شخَّصه **ماركس** أوَّلاً هو الاغتراب الديني، لذلك كانت دعوته إلى إجلاء القداسة من العالم وطرد الكهنة وتحطيم المعابد للوصول إلى روح الظروف الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة الكامنة في أعماق الذات البشريَّة، لذلك ومثلما كان نقد الاغتراب الديني هو المدخل الرئيس لكلّ نقد، فإنَّ نقد الاغتراب الاقتصادي هو شرط إمكان كلّ تخطٍّ إيجابي لما يحول دون استرداد الذات المصادرة داخل العلاقات الإنتاجيَّة الاستبداديَّة، لذلك «يبدو الطابع الخارجي للعمل بالنسبة إلى العامل في حقيقة أنَّه ليس له وإنَّما لآخر، إنَّه لا ينتمي له، إنَّه خلاله لا ينتمي لنفسه وإنَّما لآخر (...)، كذلك فإنَّ نشاط العمل ليس هو نشاطه التلقائي، إنَّه لآخر، إنَّه فقدان الذات».[25]

22- المصدر نفسه ص 27.

23- المصدر نفسه، ص 27.

24- مخطوطات 1844 الاقتصاديَّة الفلسفيَّة، ص 27.

25- المصدر نفسه، ص 30.

يُفهم الاغتراب إذاً مثلما بيَّنت لنا المخطوطات الأولى على أنَّه النتيجة الحتميَّة للعمل المأجور، فالعمل لم يعد مصدراً لثروة الشعوب، مثلما ذهب إلى ذلك **أدام سميث** و**ريكاردو**، وإنَّما تصيَّر مقترناً بفقدان الذات، إنَّه ضياع مزدوج؛ فالعامل حينما يعمل هو في حقيقة الأمر يعيد إنتاج ذاته كضياع، ويخلق نتاج عمله وثمرة جهده كضياع، وبالتالي فهو يساهم في خلق استراتيجيات الهيمنة عليه، أي أدوات استعباده واستغلاله، وبالتالي فالعامل «يخلق إنتاجه كفقدان لواقعه، كعقاب له، تماماً كما يخلق نتاجه كضياع، كنتاج لا ينتمي له، فإنَّه يخلق كذلك سيطرة الشخص الذي لا ينتج على الإنتاج، وكما يغترب بنشاطه عن نفسه فإنَّه كذلك يضفي على الغريب نشاطاً غريباً».[26]

البيّن من هذا الشاهد التصريف الجديد الذي أعطاه **ماركس** لمفهوم الاغتراب، والذي لم يعد فيه بالإمكان الحديث عن الاغتراب المتخارج عن العوامل الاقتصاديَّة، هو أنَّه لا يتعامل مع الاغتراب بردّه إلى قوَّة تثوي خلف العالم، بل يتابعه جينيالوجياً من جهة الولادة والنشأة، كما من جهة التطوُّر والاستحالة، فمن الاغتراب الدّيني إلى الاغتراب السياسي والاقتصادي، أي من نقد السماء إلى نقد الأرض، فكان الاغتراب في عيادة ماركس، ونحن نقول العيادة لأنَّ النقد الماركسي للاغتراب هو تشخيص إلى حدّ المرض لأصله وفصله والظروف التي أنتجته والقوى التي خدمته وشرَّعت لاستمراريته وشروط وسبل إمكان تجاوزه وتخطّيه إيجابياً.

قاد هذا التشخيص إلى ردّ الاغتراب والاستلاب إلى حركة النظام الرأسمالي، وبالتالي فالملكيَّة الخاصَّة هي التي أنتجت هذا الوجود المغرّب والعامل المستلب، فما يصفه **ماركس** وما يشخّصه بكونه اغتراباً واستلاباً هو في خاتمته ليس إلا «نتيجة لحركة الملكيَّة الخاصَّة».[27]

يكون الاغتراب الاقتصادي النتيجة الحتميَّة لحركة الجهاز الإنتاجي الرأسمالي بعلاقاته الاستبداديَّة، كما بعمله المأجور وملكيته الخاصَّة، فالاغتراب إذاً هو اغتراب شامل، يبدأ بالاغتراب في المنتج، ثمَّ داخل الإنتاج تكون حصيلته اغتراب الوجود النوعي. وتقود هذه الاغترابات مجمَّعة في خاتمتها إلى اغتراب الإنسان تجاه الإنسان، وهذا ما عبَّر عنه **بول ريكور** حينما كتب يقول: «يعقب المراحل الثلاث السابقة التي هي الاغتراب في المنتج، والاغتراب داخل الإنتاج، والاغتراب في صميم الوجود النوعي، البعد الرابع والأخير وهو تغريب الكائن البشري عن الكائن البشري، أي تغريب على مستوى تشارك الذوات».[28]

26- المصدر نفسه، ص 30.

27- مخطوطات 1844الاقتصاديَّة الفلسفيَّة، مصدر مذكور سابقاً، ص 30.

28- ريكور (بول)، **الإيديولوجيا واليوتوبيا**، ترجمة، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتّحدة، الطبعة الأولى، يناير 2002. ص 100.

ظلَّ مفهوم الاغتراب عند **ماركس** مفهوماً مطوَّراً باستمرار عبر مسار تشكّل الفلسفة الماركسيَّة، لذلك فهو «مقولة أساسيَّة من مقولات الماديَّة التاريخيَّة»[29]، لذلك نراه يطرح في كلّ مرحلة طرحاً متقدّماً عن الأطوار التي سبقته، ففي «**الإيديولوجيا الألمانيَّة**» انتقل **ماركس** من اغتراب العامل أمام فعل الإنتاج والمنتوج كما ذاته والآخر والعالم في شموليته، إلى الاستلاب داخل تقسيم العمل الاجتماعي بين عمل مادي وعمل فكري، وهو ما أدَّى إلى انكفاء الفلاسفة على الميدان الفكري والنظري، ممّا أدَّى إلى غربة الفلسفة والفيلسوف عن الواقع.[30] فكان العامل شأنه شأن السلع المعروضة في السوق، وبالتالي فهو «معرَّض لجميع مصائب المزاحمة ولجميع تقلّبات السوق»[31]، وبالتالي فهو مموضع ومشيَّأ داخل علاقات الإنتاج فاقد لإنسانيته ومسعَّر، شأنه شأن السكر لا أكثر ولا أقل؛ الأولى تُقاس بالساعة والثانية بالميزان».[32] يُفهم الاغتراب إذاً في هذا الموضع في استثمار واستغلال جهد العامل وامتصاص دمائه لتحقيق القيمة الفائضة، ولمواكبته يقتضي الأمر تنزيله في سياق العلاقات الاقتصاديَّة التي قسَّمت المجتمع إلى طبقات متناحرة؛ طبقة تنتج وطبقة تستولي على الإنتاج، وتجبرُ الطبقات المنخلعة عن الوجود على بيع قوَّة عملها، ومعنى ذلك عندما يقول **ماركس**: «إنَّ رأس المال المدفوع لقاء قوَّة العمل تبادله الطبقات العاملة لقاء وسائل المعيشة، يخدمها استهلاكها لإنتاج عضلات الشغيلة الموجودين وأعصابهم وعظامهم وأدمغتهم ولتكوين شغيلة جدد».[33] فالاغتراب الشامل هو ما رسمه **ماركس** حينما بيَّن حقيقة ما ينتجه العامل لغيره وما ينتجه لنفسه، فـ«ليس الحرير الذي ينسج، وليس الذهب الذي يُستخرج من المناجم، وليس القصر الذي يُبنى، إنَّ ما تنتجه لنفسها إنَّما هي الأجرة».[34] لذلك لا يُفهم الاغتراب دون المرور بنظريَّة الاستغلال، وهذا هو شرط إمكان فهم رأس المال لما يقول **ألتويسر**.[35]

إنَّ ما شخَّصه **ماركس** بكونه اغتراباً وضياعاً واستلاباً وسلبيَّة وتشيئة وموضعة، ليس تشخيصاً عدمياً وإنَّما هو تشخيص تأسيسي، لأنَّه المدخل الحقيقي لعمل الماديَّة التاريخيَّة، وبالتالي فإلغاؤه هو شرط إمكان كيان الماديَّة التاريخيَّة، بهذا المعنى فقط يكون تتبُّع جينيالوجيا الاغتراب عبر الأطوار التاريخيَّة للتشكيلات الاجتماعيَّة المدخل الحقيقي لفلسفة الرفض التي تمرُّ عبر فلسفة الفعل.

29- معجم الماركسيَّة النقدي، مرجع مذكور سابقاً، ص 106.

30- ماركس (كارل)، **الإيديولوجيا الألمانيَّة**، ترجمة فؤاد أيوب، الطبعة الأولى، نوفمبر 1976، ص 61.

31- ماركس (كارل)، إنغلز (فريديريك)، **البيان الشيوعي**، ترجمه وقارنه عن الألمانيَّة وعلّق بقاموس ماركسي على كلماته النظريَّة والتاريخيَّة العفيف الأخضر، دار الطليعة 1975ص71.

32- ماركس (كارل)، إنغلز (فريديريك)، **مختارات في أربعة أجزاء، الجزء الأول**، دار التقدُّم، موسكو1975، ص 103، 104.

33- ماركس (كارل)، رأس المال، **نقد الاقتصاد السياسي**، الجزء الثالث، ترجمة محمّد عيتاني، دار المعارف، ط3 1978. ص 818، 819.

34- **مختارات في أربعة أجزاء، الجزء الأوَّل**، مصدر مذكور سابقاً، ص 105، 106.

35- يمكن العودة في هذا السياق إلى:

Althusser (Lowis), Freud et Lacan la philosophie comme arme de la révolution, comment lire le capital Marxisme et lutte de classe, Édition sociales, Paris, 1976, p50.

3. من الرفض إلى الفعل

لمَّا انتقل **ماركس** من نقد السماء إلى نقد الأرض، ومن التأمُّل إلى الفعل، ومن النقد المتعالي عن موضوعاته إلى النقد المحايث، فإنَّه في الوقت ذاته قد قطع مع السنن الميتافيزيقيَّة ومع المثاليات الذاتيَّة والموضوعيَّة بمنعرج مادي تاريخي ديالكتيكي، ليمكّنه من تتبُّع أصل وفصل الاغتراب وتطوُّره عبر التشكيلات الاجتماعيَّة، فمن الاغتراب أمام الدّين إلى اغتراب العالم السياسي المترجم في الاغتراب داخل النشاط الاقتصادي في جمعه، أي اغتراب أمام المنتوج وفعل الإنتاج وأمام الآخر، يضاف إليها غربة الذات عن ذاتها.

مكَّننا هذا الترحُّل من الوقوف على الكيفيَّة التي نزَّل بها **ماركس** الاغتراب، ليكون بذلك أوَّل من عالج هذا المفهوم بطريقة علميَّة. فهو لا يطلب الخلاص لينفي الاغتراب في العوالم الأخرى، ولا ينتظر تشكّل الواقع لتخطّي الاغتراب، ولا يدعو إلى تأسيس ديانة جديدة قائمة على الحب لتخطّي اغتراب الجوهر الإنساني،[36] بل يدعو إلى السكن داخل فروع الجهاز الإنتاجي الذي أنتج شتَّى أشكال الاغتراب، ومن ثمَّة فهو يرجع الاغتراب إلى جذوره الأولى، أي إلى ديانة المال والملكيَّة الخاصَّة. فشفاء الإنسانيَّة من اغترابها لن يكون ذا جدوى وفاعليَّة إلا بتخطّي أسلوب الإنتاج الرأسمالي، ومن ثمَّة **فماركس** يطرح الاغتراب كمشكل اقتصادي، أي في إطار علاقات الإنتاج الاستبداديَّة واللَّا متكافئة. بهذا المعنى فقط يكون الاغتراب في عيادة **ماركس**، والعيادة في هذا الموضع تُحملُ وتُؤخذُ في معناها السياسي لا الطبّي، فتخطّي الوجود الاغترابي والنشاط الاستلابي لا يكون ممكناً إلا من خلال المرور من التأمُّل إلى الفعل، ومن تأمُّل العالم إلى تغييره.

مكَّن رفع **الهيغليَّة** وتطعيم الماديَّة **الفيورباخيَّة** من إحداث منعرج حاسم في تاريخ الفكر البشري، بمقتضاه أعيدت صياغة الديالكتيك ليكون هو نفسه تعبيراً عن الرفض الشامل لمآلات رأسماليَّة القرن التاسع عشر، من جهة تصيُّرها متأخرة ورجعيَّة. فالديالكتيك **الماركسي** المقوَّم والمطهَّر داخل جدول النار **الفيورباخي** هو ديالكتيك مناضل ومقاوم لما يعيق استرداد الذات الإنسانيَّة، فبمعيَّة المنهج الديالكتيكي وضع **ماركس** «حدَّاً لاستلاب الإنسان عن طريق ديالكتيك مناضل، ديالكتيك تحررُّي»[37]، ليطرح سبل إمكان تخطّي منظومة رأس المال.

حينما يرفض **ماركس** الأسس التي قام عليها الاقتصاد السياسي الرأسمالي، وحينما ينشّط الديالكتيك ويخدّمه ليكون معبِّراً عن الرفض العظيم لمآلات اقتصاد السوق، فإنَّه في الوقت ذاته يقرُّ بضرورة المرور

36- يمكن العودة في هذا الموضع إلى: إنغلز (فريدريك)، **فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيَّة الألمانيَّة**، ترجمة: محمد لعريبي، دار التقدُّم للنشر. (بدون تاريخ).

37- غارودي (جورج)، **كارل ماركس**، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، ط1، سبتمبر 1970، ص 198.

من تأمُّل العالم إلى تغييره، وهذا هو مدلول الأطروحة الحادية عشرة من «**أطروحات حول فيورباخ**»، فهي تحمل على أمره المتعلّق رأساً بالتغيير الراديكالي للعالم شيوعياً لتجاوز اغتراب الذات واستلابها، ومثل هذا الأمر مرتهنٌ بالفاعليَّة الثوريَّة النشيطة، فهي القادرة على تخطّي الإنسانيَّة الناقصة، وهذا العمل الجبَّار يبقى مرتهناً لما يقول **غارودي**: «بتدمير الاقتصاد الرأسمالي القائم على الريع في مبدئه بالذات، وبناء اقتصاد اشتراكي قائم على الحاجة، هو وحده الذي سيضع حدًّا لاستلاب الإنسان»[38]، لتجاوز غربة الفلسفة والفيلسوف عن الواقع، أي انتقال الفلسفة ومن ورائها الفيلسوف من موضع فهم العالم وتأمُّله إلى موضع تغييره ثورياً عبر اتحاد الفلسفة مع قوَّتها الماديَّة، أي القوَّة الشعبيَّة التي نمت وترعرعت عبر سيرورات الإفقار التي تركتها الرأسماليَّة في نموُّها المتواصل. فتخطّي الاغتراب إذاً يمُر أوَّلاً عبر إعادة تحديد دور الفلسفة ومهام الفيلسوف، وبالتالي الدور الطليعي والتاريخي للطبقة العاملة، فإلغاء الاغتراب متوقّف على تحقيق الفلسفة، وتحقيق الفلسفة مرتهن بتحقق الطبقة العاملة عبر الممارسة النشيطة.

يمرُّ **ماركس** في سياق رفضه للاغتراب الرأسمالي من النقد إلى الفعل، ليدخل بذلك في مشروع تغيير العالم على نحو إيجابي، فلا يمكن تخطّي الاغتراب من وجهة التفسير المادي للتاريخ إلا بتخطّي أسلوب الإنتاج الرأسمالي الذي نمت معه الملكيَّة الخاصَّة والعمل المأجور، ذلك أنَّ سرَّ هذا الأسلوب وأساس ازدهاره وعنفوانه هو القيمة الفائضة، فهي التي ساهمت في اتساع الهوَّة بين الطبقات على مستوى عالمي، وهي كذلك التي أنتجت البؤس والإفقار لمنتجيها والثروة والرفاه لغيرها، فحركة الإنتاج الرأسمالي إذاً لا تنتج فائض القيمة فحسب، بل «تنتج وتخلّد العلاقة الاجتماعيَّة بين الرأسمالي والعامل الأجير»[39]، لهذا يدعو ماركس وإنغلز إلى تخطّي أسلوب الإنتاج الرأسمالي، ودواعي ومبررات تخطّيه تُفهم في سياق المسار اللَّاإنساني للتوسُّع الرأسمالي وعبر سيرورات الإفقار والفوارق بين الطبقات.

إنَّ رفض مؤسّسي الماركسيَّة للاغتراب بجميع تلويناته والاستغلال الرأسمالي بمختلف أشكاله هو الذي دفعهما للانتقال إلى الممارسة التي تستهدف التغيير الشامل للعالم على نحو إنساني، فجميع التشكيلات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة منذ المجتمع العبودي إلى المجتمع الرأسمالي الراهني هي تشكيلات طبقيَّة قائمة على الهيمنة والإخضاع والاستغلال، وبالتالي فالصراع الطبقي والتناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج هما قانونان للمرور من تشكيلة اجتماعيَّة إلى تشكيلة اجتماعيَّة واقتصاديَّة أخرى. وقد قاد هذا التأريخ المادي التاريخي لتاريخ التشكيلات الاجتماعيَّة إلى ضرورة البحث عن نموذج سياسي واقتصادي يكون قادراً على استعادة الذوات البشريَّة المصادرة في معبد رأس المال، فنقد **ماركس** إذاً للجهاز الإنتاجي الرأسمالي والسكن داخل فروعه والعمل على معرفة طرق اشتغاله وازدهاره هو في حقيقة الأمر بحث عن

38- **ماركس كارل**، مرجع مذكور سابقاً، ص 224.

39- **نقد الاقتصاد السياسي**، الجزء الثالث، مصدر مذكور سابقاً، ص 827.

كيفيَّة نشأته وتطوُّره وتناقضاته، والقوانين التي تحكمه من أجل العمل على تخطّيه. فعمليَّة تخطّي الاغتراب لا تكون بتخطّي الاغتراب في ذاته، أي كما هو في حاله، بل بتخطّي الظّروف التي أنتجته.

يقودنا ما قيل إلى أنَّ حلَّ مسألة الاغتراب، كما هو الشأن بالنسبة إلى المسألة اليهوديَّة، يجد تعبيره في أسلوب الإنتاج الرأسمالي، وبالتالي فبتخطّي منظومة رأس المال تقع عمليَّة تخطّي الاغتراب الإنساني، فما يرفضه **ماركس** هو علاقات الإنتاج الرأسماليَّة المنتجة للاغتراب والاستغلال، وما يسعى إلى تحطيمه هو منظومة رأس المال.

إنَّ فلسفة الفعل إذاً هي ترجمة لفلسفة الرفض داخل عمل ثوري يتمفصل فيه النظري بالعملي للتخطّي الإيجابي للملكيَّة الخاصة، وبتخطّيها تولد الشيوعيَّة بما هي المستقبل والفضاء الذي فيه ستستردّ الذات، فتخطّي الملكيَّة الخاصة إنَّما يؤدّي إلى تخطّي شتى أشكال الاغتراب. ففلسفة الفعل إذاً هي التخطّي الخلَّاق والإيجابي للملكيَّة الخاصَّة، ذلك أنَّ فعل التخطّي إنَّما يؤدّي إلى مولد الشيوعيَّة باعتبارها «الإيجابي كنفي للنفي».[40] فبهذا الفعل فقط، أي الفعل الثوري الذي يزاوج بين النظريَّة وقوّتها الماديَّة، بين الفلسفة والواقع في صلب التطوُّر التاريخي تتحقق «عمليَّة الانعتاق والاسترجاع البشريين».[41]

يؤكّد لنا ما قيل أنَّ نقد الاغتراب الاقتصادي وتخطّيه إيجابياً بالمرور إلى تشكيلة اجتماعيَّة واقتصاديَّة أرقى هو المدخل الحقيقي لكلّ فعل يستهدف الإرجاع الإنساني، وهذا ما عبَّر عنه **ماركس** من جهة تأكيده أنَّ تجاوز الاغتراب الأرضي والسماوي لا يحلُّ ويتجاوز «إلا بتطبيق الشيوعيَّة».[42] ويبقى تطبيقها مرتهناً بـ«فعل شيوعي»[43] يجد ترجمته سياسياً في تحوُّل الطبقة العاملة إلى قوَّة تنظّم نفسها لتحرّر نفسها؛ ففي تحرُّرها تحرُّرٌ للعالم بأسره، وفي تجاوزها لاغترابها الذاتي تجاوز للاغتراب الإنساني في شموليته».[44]

يحدّد **ماركس** مصرف تخطّي الاغتراب عبر الفعل الشيوعي الذي يراوح بين النظريَّة والواقع، أي بين البروليتاريا باعتبارها القوَّة الماديَّة وفلسفتها باعتبارها السلاح النظري للدخول في تناقض مع عالم الثراء، ومن ثمَّة تثوير الوجود السياسي والاقتصادي، ومعنى ذلك أنَّ الاستلاب «لا يمكن إلغاؤه إلا بتوفّر شرطين عمليين، فحتى يصبح قوَّة لا تطاق، يعني قوَّة يقوم البشر بثورة ضدَّها، لا بدَّ من الضرورة أن يكون قد جعل الكتلة العظمى من البشريَّة كتلة محرومة من الملكيَّة تجد نفسها في تناقض مع عالم الثراء».[45]

40- مخطوطات 1844 الاقتصاديَّة الفلسفيَّة، مصدر مذكور سابقاً، ص 39.

41- المصدر نفسه، ص 43.

42- المصدر نفسه، ص 43

43- الإيديولوجيا الألمانيَّة.

44- المصدر نفسه، ص 44.

45- المصدر نفسه، ص 49.

إنَّ رحلة النقد من نقد السماء إلى نقد الأرض هي رحلة الفيلسوف من تأمُّل العالم إلى تثويره والعمل على تغييره إيجابياً، فالدعوة إلى تخطّي الاغتراب عن طريق **فلسفة الفعل الشيوعي** في التاريخ هو في عمقه مسعى لإثبات الشيوعيَّة نظرياً وعملياً؛ ذلك أنَّنا نعتبر أنَّ مولد الاغتراب الاقتصادي وتفاقم الاستثمار والاستغلال يمثّل المقدّمات الواقعيَّة لميلاد هذه الحركة التأسيسيَّة، وهي «الحركة الواقعيَّة التي تلغي الأوضاع القائمة حالياً، وشروط هذه الحركة تنتُج عن المقدّمات الموجودة في الوقت الحاضر»[46]، فلا يمكن لهذه الحركة أن تكون إلا حركة ثوريَّة تحمل **أمرها القطعي** إلى أقصاه، أي أمر التغيير الراديكالي للعالم بتخطّي أسلوب الإنتاج الرأسمالي. ففي **البيان الشيوعي** يحدّد **ماركس** مصرف الثورة نظرياً، وذلك بدءاً بما هو قومي لتتخلّص البروليتاريا من «برجوازيتها الخاصَّة»[47]، ومنها زعزعة مضجع المجتمع الرأسمالي بواسطة ثورة عنيفة تحطّم البنى المتكلّسة الرافضة للتطوُّر، عبر رفع شعار «يا عمَّال العالم اتحدوا».[48] أمَّا في **الثامن عشر من لويس بونابرت** فإنَّه يحلل فكر الثورة عملياً من فكرة الاستيلاء إلى تحطيم وتفكيك جهاز الدولة، وهذا ما بيَّنه ماركس في **رسالة إلى غولكمان** حينما كتب يقول:

لن تمرّر الثورة القادمة الآلة البيروقراطيَّة والعسكريَّة إلى أيادٍ أخرى مثل الآن وإنَّما هدمها».[49] تعبّر هذه الاستنتاجات عن تطوير **ماركس** لمفهوم الثورة وممكنات تخطّي الاغتراب الاقتصادي والسياسي، ذلك أنَّ نجاح الثورة وتخطّي منظومة رأس المال مرتهن بافتكاك السلطة السياسيَّة وتفكيك أجهزتها القمعيَّة والطبقيَّة، لذلك يركّز **ماركس** في «**البيان الشيوعي**» على الثورة العنيفة التي تحطّم دولة البرجوازيَّة، لأنَّ «البروليتاريا لا تستطيع إسقاط البرجوازيَّة إن لم تستولِ في البدء على السلطة السياسيَّة»[50]، لتدمّر النظام القائم تدميراً عنيفاً. أمَّا في **نقده لبرنامج غوته** فقد ذهب إلى القول: إنَّه «ينبغي للطبقة العاملة لكي تستطيع النضال على وجه العموم أن تتنظّم حيثما هي بوصفها طبقة، وأنَّ بلادها بالذات هي الميدان المباشر لنضالها».[51]

يحدّد **ماركس** الأساس المادي لفلسفة الفعل، فطبقة البروليتاريا هي رأس حربة الثورة والانعتاق العام للمجتمع هو الغاية التي تحرّك الفعل الثوري، فحينما تمارس فعل النفي لذاتها ولشروط وجودها واغترابها لتحقيق انعتاقها هي في الوقت ذاته تعتق المجتمع بأسره، ففيه «لا تستطيع أن تنعتق دون أن تعتق نفسها من

46- المصدر نفسه، ص 44.

47- البيان الشيوعي، مصدر مذكور سابقاً، ص 87.

48- المصدر نفسه، ص 148.

49- Marx (karl), œuvre choisie 2, Guterma (Norbert), Lefebvre, Gallimard1966 p366.

50- البيان الشيوعي، مصدر مذكور سابقاً، ص 43.

51- **منتخبات في ثلاثة أجزاء، المجلد الثالث**، الجزء الأول، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو 1981، ص 107.

جميع الفئات الأخرى، دون أن تعتق بالتالي كلَّ فئات المجتمع الأخرى، لا تستطيع وفق هذا استرداد ذاتها دون الاسترداد الكلّي للإنسان».[52]

حدَّد **ماركس** لهذا الانعتاق أساسه النظري والعملي: «فرأس هذا الانعتاق الفلسفة وقلبه البروليتاريا».[53] فالشرط الأساسي لتخطّي وتجاوز إفرازات منظومة رأس المال باغترابها واستلابها واستغلالها هو «الثورة»[54]، لهذا فقط ينادي بضرورة توحيد الطبقة العاملة، لأنَّ في وحدتها فقط يمكن تكوين قوَّة ماديَّة تنقل النظريَّة من حيّز الإمكان، من حيز الوجود بالقوَّة **الأرسطيَّة** إلى حيّز الوجود بالفعل، وهو ما عبَّر عنه بالثورة الراديكاليَّة التي تنسف العالم القديم برمَّته، وبالتالي «فعندما توحّد البروليتاريا نفسها بحكم الضرورة، وعندما تنصّب نفسها بثورة طبقيَّة حاكمة وبصفتها هذه تقضي بالقوَّة على علاقات الإنتاج القديمة، وبقضائها على هذه العلاقات تقضي في الوقت نفسه على شروط وجود التناحر الطبقي وعلى وجود الطبقات عامَّة».[55]

تجد شتَّى أشكال الاغتربات مدلولها وأصلها وفصلها في الملكيَّة الخاصَّة، لذلك فتخطّي الملكيَّة الخاصَّة إيجابياً نحو الشيوعيَّة هو في عمقه «التعبير الإيجابي عن الملكيَّة الخاصَّة الملغاة»[56]، بهذا المعنى فقط تُحلُّ شتَّى أشكال الاغترابات، وتستردُّ فيها الذات المصادرة بالانتقال إلى الشيوعيَّة وتطبيق الاشتراكيَّة العلميَّة، ذلك أنَّها «الحل الحقيقي للنزاع بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، بين الوجود والماهيَّة، وبين التموضع وتأكيد الذات، وبين الحريَّة والضرورة، بين الفرد والنوع».[57]

يكون تخطّي الاغتراب والاستلاب مرتهناً بتخطّي الملكيَّة الخاصَّة، فبتخطّيها فقط يُحلُّ لغز التاريخ وتتخطّى الإنسانيّة اغترابها الذاتي والموضوعي، لذلك «فالتخطّي الإيجابي للملكيَّة الخاصَّة، كتملّك للحياة الإنسانيَّة هو التخطّي الإيجابي لكل اغتراب».[58] بهذا المعنى سعى **ماركس** إلى مناقضة الرأسماليَّة ببرنامج سياسي واقتصادي تثبت فيه الذات وتؤكّد حضورها في العالم، عبر فعل المنظوريَّة التي تجعل من الإنسان إلهاً للإنسان، وبالتالي فمناقضة الحداثة الرأسماليَّة بالاشتراكيَّة والشيوعيَّة هو تفعيل لصراع النقيضين داخل مشروع الحداثة ذاته، وبالتالي فتخطّي الاغتراب هو التعبير الختامي عن ضرورة تخطّي الموضع الرأسمالي الذي تنتفي فيه الذات وتفتقد لموضع الأيس والإيجابي كنفي للنفي، وهذا ما عبَّرت عنه المخطوطات من جهة

52- Critique du droit politique Hégélienne, op cit, p212.

53- Ibid., 212.

54- الإيديولوجيا الألمانيَّة، مصدر مذكور سابقاً، ص 43.

55- البيان الشيوعي، ص 148.

56- مخطوطات 1844 ص 4.

57- نفسه، ص 38.

58- نفسه، ص 38.

تأكيدها أنَّ «الشيوعيَّة هي الإيجاب كنفي للنفي، ومن هنا فإنَّها المرحلة الواقعيَّة الضروريَّة للمرحلة التالية من التطوُّر التاريخي في عمليَّة الانعتاق والاسترجاع البشريين».

4. الرَّهن الإمبراطوري في عيادة ماركس

تُطرح العيادة هنا بمفهومها السياسي لا الطبي، فهي إشكال سياسي يوقع لكارثيَّة الراهن الإمبراطوري[59*] كإشكال فلسفي فيه يطرح المرض الإمبراطوري المعولم بأفق تأسيسي، يُعاد ويُستعاد التفكير مع **ماركس** ضدَّ الوجود الإمبراطوري الذي بات شاملاً، فأشكال القصور والوصاية قد تواصلا بعد **كانط**، أمَّا الاغتراب والاستلاب والاستثمار والاستغلال فقد أعيد استحداثها وتشكيلها طبقاً للتغيُّرات التي شهدتها العولمة الرأسماليَّة. فالتفكير بالراهن الإمبراطوري المعولم عيادياً هو انخراط في مشروع سياسي تأسيسي يستشكل ويعاين أمراض الإمبراطوريَّة بطريقة نقديَّة، ليرسم ممكنات وسبل رسم فعل العبور والتخطّي والتجاوز.

تكون الفلسفة اليوم مطالبة بعادة الانخراط بأكثر حدَّة وصلابة لمعاينة السمات المرضيَّة التي نقشت بأحرف من دم على الأجساد المعاصرة، فالتاريخ الفعلي للحداثة الغربيَّة منقوش في أرشيف الرأسماليَّة، كما هي كائنة الآن بالفعل عبر مسارها الطويل. فالأنا الغربيَّة المتمركزة حول العقل والصوت هي نتاج للحركات الاستعماريَّة الكلاسيكيَّة، وهي الآن نتاج للاستعمار الناعم العابر للقارات، لذلك فتقسيمنا لجينيالوجيا الاغتراب من السماء إلى الأرض ومن الرفض إلى الفعل هو دعوة صريحة إلى إعادة تفعيل النقد داخل هذه الحضارة التي باتت مهدَّدة في وجودها. فالاغتراب الديني ما يزال فاعلاً وحاضراً في الخطابات السياسيَّة والحربيَّة، أمَّا الاغتراب الاقتصادي فقد بات شاملاً في الوضع الإمبراطوري المعولم، وهذا ما يدفع إلى التفكير في شروط إمكان إعادة التفكير في ممكنات وسُبل تجاوز ما يحول دون تأكيد الذات قولاً وفعلاً في العالم، ومثل هذا الأمر إنَّما يمرُّ بما يلي:

أوَّلاً: برسم البنيان السياسي والاقتصادي والجيوسياسي للحاضر عبر نقد الاقتصاد السياسي الرأسمالي في درجته القصوى، أعني العولمة، ونقده إنَّما يعني في هذا الموضع جعل **ماركس رأس المال** حالة بدئيَّة، ذلك أنَّ الرأسماليَّة بملكيتها الخاصَّة وعملها المأجور، مثلما كان **ماركس** قد عكف عليها نقداً وتحليلاً بمنهجه الكشفي، هي الآن الإمبراطوريَّة المعولمة، وهو ما يعني أنَّ الرأسماليَّة ما تزال تحافظ على جوهريتها، وما

59*هذه الأهميَّة نقول براهنيتها وراهنيَّة تستلزم وضع مخزوننا الرُّوحي في موضع أزمة شاملة يورط فيها هذا المخزون الرُّوحي الذي أنتج وما يزال ينتج البربريَّة الضاربة في ما قبل التاريخ، لذلك فالبداية الحقيقيَّة نحو مشروع فلسفي تنويري يمرُّ حتماً ووجوباً طبقاً لكارثيَّة اللحظة وميقات التفلسف الذي ربطناه بالشر وبالكارثة **بسبينوزا** ومنه إلى ماركس، و**سبينوزا** من جهة دفاعه عن العقل ضدَّ الاستبداد الديني ومراهنته على التحرر، و**ماركس** من جهة نحره للدّين في سبيل الإنسان الحر المتحرّر من معوقاته الأرضيَّة والسماويَّة. وقد كتب **جيرار بن سوسان**: التحرير هذه الكلمة ذات الصدى **السبينوزي** (trcta tus politicus) الأصل **الروسوي** ....راسخة في تراث عصر الأنوار ومحفورة في التاريخ بواسطة الثورتين الأمريكيَّة والفرنسيَّة على وجه الخصوص. وكان من الطبيعي تماماً أن تصلح لتشخيص مشكلة سياسيَّة فعليَّة في رينانيا الفرنسيَّة، ثمَّ البروسيَّة: مشكلة تحرير اليهود التي كانت آنذاك في قلب المعارضة الليبراليَّة. وفي ذلك «المنشأ» أيضاً نبتت الماركسيَّة، وفي هذا الإطار على الأقل بدأ ماركس، شأنه شأن الآخرين في الفضاء الجرماني، بالتفكير في السياسة. انظر: **معجم الماركسيَّة النقدي**، مرجع مذكور سابقاً، ص 380.

تغيَّر هو شكلها، في انتقالها من درجة إلى درجة، وبالتالي فشتَّى أشكال الاغتراب والاستلاب والاستثمار والاستغلال ما تزال جاثمة ومستوطنة في بنية الرأسماليَّة، وهو ما يعني أنَّ اغتراب العالم ما بعد الحديث واستلاب الإنسان الإمبراطوري في حلّته الجديدة ما يزال أفقاً إشكاليًّاً لنفكر فيه تفكيراً تأسيسياً، وهو ما يعني أنَّ إشكاليَّة العبور والتخطّي الإيجابي لأشكال الاغتراب ما يزال سؤالاً مطروحاً.

ثانياً: تعريَة وفضح الوجود الرأسمالي المعولم، كما هو كائن بالفعل في كلّ مكان، وفضحه إنَّما يعني تعريَة وملاحقة إمداداته النظريَّة والعمليَّة، ومن ثمَّة الوقوف على مآلاته، فلا يمكن تخطّي الاغتراب والاستلاب دون تخطي الفقر والبطالة والجهل والأميَّة والجريمة المنظَّمة والاتجار بالسلاح والبشر. وباختصار لا يمكن تخطّي ما يحول دون الاسترداد الشامل والعميق للإنسانيَّة دون تخطّي أسلوب الإنتاج الذي أنتج اللَّا إنساني في هذه الحضارة.

البيبليوغرافيا

1- المصادر

أ. باللغة العربيَّة

* إنغلز (فريدريك) **فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكيَّة الألمانيَّة**، ترجمة محمد لعريبي، دار التقدُّم للنشر (بدون تاريخ).

* ماركس (كارل) **الإيديولوجيا الألمانيَّة**، ترجمة فؤاد أيوب، ط1 نوفمبر 1976.

* ---------، **حول المسألة اليهوديَّة**، ترجمة حمزة برقاوي، 1989، الأهالي، عن دار ديتز برلين، 1961.

* ---------، رأس المال، **نقد الاقتصاد السياسي**، الجزء الثالث، ترجمة محمَّد عيتاني، دار المعارف، ط3ا 1978.

* ---------، ماركس (كارل) **مخطوطات 1844الاقتصاديَّة الفلسفيَّة**، ترجمة محمد مستجير مصطفى، دار الثقافة الجديدة 1974.

* ---------، إنغلز (فريدريك) **البيان الشيوعي**، ترجمه وقارنه عن الالمانيَّة وعلّق بقاموس ماركسي على كلماته النظريَّة والتاريخيَّة العفيف الأخضر، دار الطليعة 1975.

* ---------، ماركس (كارل)، إنغلز (فريديريك) **مختارات في أربعة أجزاء، الجزء الأول** دار التقدُّم، موسكو1975.

*----------، **منتخبات في ثلاثة أجزاء، المجلد الثالث**، الجزء الأول، ترجمة الياس شاهين، دار التقدُّم موسكو 1981.

ب. باللغة الفرنسيَّة

* Marx (karl), œuvre choisie 2, Guterma (Norbert), Lefebvre, Gallimard1966.

* --------, Critique du droit politique Hégélienne, traduction et introduction d'Albert Baraquin, Éditions sociales, Paris1975.

2. المراجع

أ. باللغة العربيَّة

* سوسان (جيرابن)، لابيكا (جورج)، **معجم الماركسيَّة النقدي**، ترجمة جماعيَّة، دار محمد علي للنشر، ط1 2003.

* ريكور (بول)، **الإيديولوجيا واليوتوبيا**، ترجمة، فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتَّحدة، ط1 يناير 2002.

* غارودي (جورج)، **كارل ماركس**، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، ط1 سبتمبر 1970.

ب. باللغة الفرنسيَّة

* Althusser(Lowis), Freud et Lacan la philosophie comme arme de la révolution, comment lire le capital Marxisme et lutte de classe, Édition sociales, Paris, 1976.

* ---------, pour Marx, Edition la découverte, paris, 1968.

* ---------, Lénine et la philosophie, suivie de Marx et Lénine devon Hegel, Petite collection Maspero, Paris1992.

* Feuerbach (Ludwing (L'essence de christianisme, présentation par J P Osier, Gallimard 1991.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017